

الفلسفة الوضعية وإشكالية التمييز

بين الفلسفة والعلم

د. براهيم أحمد

جامعة عبد الحميد بن باديس - مستغانم الجزائر

الملخص:

الفلسفة والعلم سيظلان دوما مصدرين أساسيين للمعرفة، كل بطبيعته وطريقته ومجاله، وتكمن أهمية طرح هذه المسألة من خلط الكثير من المثقفين وطلاب العلم بين هذين المجالين، وبالتالي ربما يخلطون بين الأمر المحسوم والأمر غير المحسوم، بين الثابت والمتغير، بين ما يقبل النزاع والجدال والاختلاف، وبين ما لا يقبل النزاع والاختلاف، ونحن نعني بالعلم ما هو قطعي لا خلاف عليه، ونعني بالفلسفة كل موضوع وقضية ما زالت موضعا للرد والقبول، ومن هنا كان لا بد من بيان مساحات الاتصال والانفصال بينهما. العلم نشئ في أحضان الفلسفة وترافقا دهرًا طويلا من الزمن، وما زال هناك من يصير على الخلط بينهما في محاولة لتغيير طبيعة الفلسفة على نحو يتوافق مع العلم وقواعده ومسلماته ومعادلاته.

إذ يختلف تناول الفلسفي عن تناول العلمي، وإذا كان الأمر كذلك فلا شك أن طبيعة المعرفة الفلسفية النابعة من تلك المعالجة تكون مختلفة عن تلك التي تنبع من معالجة أخرى.

من هنا نحاول هذه الدراسة أن تتناول هذه العلاقة الجدلية بين الفلسفة والعلم من منظور الفلسفة الوضعية، فإما ترى ما هو الطرح الذي تقدمه هذه المدرسة لحل وفك هذا النزاع المحتدم لإشكالية التمييز بين الفلسفة والعلم؟

إن الموقف الوضعي المتعلق باختلاف الفلسفة والعلم قابل للتبرير تماما، بل نعتبره أحسن سند فكري للتأمل في فكرة الاختلاف هذه ولتحليلها. لكننا نطمح

إلى رؤية المسألة من زاوية أخرى سكت عنها المنطوق الوضعي الرسمي، وهي زاوية مدى اختلاف هذه الأصول المميزة للفلسفة عن العلم.

إذ أن تاريخ الفلسفة يؤكد ما قاله الوضعيون بخصوص عقلانية موضوعات الفلسفة ومناهجها، فالفلسفة بحثت وتبحث في أسس الأشياء ومبادئها، أي في العلل على حد تعبير الوضعيين، فهي تقيم بأسس الأخلاق ومبادئ المعرفة.. إلخ. فقد اهتم **كانط** بميتافيزيقا السلوك في كتاباته العلمية مثل **نقد العقل العملي**، واعتنى بميتافيزيقا المعرفة في كتاباته النظرية مثل **نقد العقل الخالص**. وحدّد أفلاطون من ناحيته ماهية العدل في الجمهورية، وأبرز **هيجل** حقيقة الحق في فلسفة الحق... إلخ.

إن الفلسفة والعلم سيظلان دوماً مصدرين أساسيين للمعرفة، كل بطبيعته وطريقته ومجاله، وتكمن أهمية طرح هذه المسألة من خلط الكثير من المثقفين وطلاب العلم بين هذين المجالين، وبالتالي ربما يخلطون بين الأمر المحسوم والأمر غير المحسوم، بين الثابت والمتغير، بين ما يقبل النزاع والجدال والاختلاف، وبين ما لا يقبل النزاع والاختلاف، ونحن نعني بالعلم ما هو قطعي لا خلاف عليه، ونعني بالفلسفة كل موضوع وقضية ما زالت موضعاً للرد والقبول، ومن هنا كان لا بد من بيان مساحات الاتصال والانفصال بينهما.

إذ نعتقد في البداية أن التناول الفلسفي يختلف عن التناول العلمي، وإذا كان الأمر كذلك فلا شك أن طبيعة المعرفة الفلسفية النابعة من تلك المعالجة تكون مختلفة عن تلك التي تنبع من معالجة أخرى.

ولا شك أن من جملة العلاقات المهمة بين العلم والفلسفة أن تطور كل منهما يعتمد على تطور الآخر، فتطور الفكر الفلسفي ارتبط إلى حد كبير بتطور العلم، ولو أننا رجعنا إلى بعض محاورات أفلاطون لتحقيقنا من أن اكتشاف الفيثاغوريين لبعض الحقائق الرياضية قد كان أصلاً من الأصول الهامة التي صدرت عنها نظرية أفلاطون في المثل، ولا نرى أننا في حاجة إلى القول بأن فلسفة ديكرات مدينة بالكثير من أصولها لما وصل إليه العلم على يد غاليليو وبعض معاصريه، والأمر بالنسبة للعلم واستناده على الفلسفة أوضح من ذلك بكثير، لأن جميع العلوم نشأت في أحضان الفلسفة، ومن أهم وظائف الفلسفة رعايتها للعلوم في أطوارها الجنينية.

ولا شك في أن القول باختلاف الفلسفة والعلم السائد اليوم له ما يبرره، لكنه يدفع في الحقيقة الباحث المتأمل فيه إلى محاولة الكشف عن الروابط الممكنة بين هذين النمطين المعرفيين، وهذه العلاقة المحتملة لا تخرج عن العنصرين التاليين:

أ - التأثير والتأثر.

ب - التشابه والتجانس.

والصلة بين المستويين مؤكدة، إذ أن الحوار غير جائز بين الأجناس المختلفة تماما، فلقد تأثرت الفلسفة بالعلم، إذ يمكن تفسير المثالية الكانطية انطلاقا من التصور النيوتيني لحساب التفاضل والتكامل. وهذا يعني طبعا تأثير العالم الإنجليزي في الفيلسوف الألماني، لكنه يدل أيضا على حاجة نيوتن إلى فلسفة مثل: المثالية الكانطية لتأسيس رياضيات اللامتناهي وعقلنتها (بشته، ع: 2002، 5).

ونحن لا نذكر فلسفة واحدة لم تنطلق من الفكر العلمي إيجابيا أو سلبيا. فإن أسس **كانط** نظريته المعرفية على "إيجابية" الرياضيات النيوتنية (كما فعل "أفلاطون" من قبله بالنسبة إلى رياضيات عصره)، فإن نقطة البداية عند "بركلي" "Berkely" "وهيوم" "Hume" كانت نقد العلم (بشته، ع: 2002، 5).

ومن جهة أخرى قد تأثر العلماء بالفلسفة، وقد اعترف "نيوتن" نفسه بتأثير الفلاسفة فيه، وهو يخص بالذكر في هذا الصدد "أفلاطون". وبصفة عامة فالفلسفة ضرورية لعقلنة العلم ولضمان انسجام نتائجه.

انطلاقا من هذا، نجد المدرسة الوضعية ممثلا بـ: "أوجست كونت" "Compte" و"هانز ريشنباخ" "H. Reichenbach" تقر باختلاف الفلسفة والعلم (ويمكن اعتبار هذا الاتجاه خير سند في للقول بالاختلاف). لكن الوضعيين تحرّكوا، في الحقيقة، في مجال الخصوصيات والاختصاصات (وهو دائما الميدان الملائم لرصد الفروق) (بشته، ع: 2002، 6).

حيث يقصد الوضعيون بالفلسفة المختلفة عن العلم الميتافيزيقا، أو الفلسفة التقليدية، أي فلسفة "أفلاطون" و"كانط" و"هيجل" وغيرهم. ويقابلونها بـ: "الفلسفة الوضعية" التي قال بها "كونت" بـ: "الفلسفة العلمية" التي طرحها "ريشنباخ" مثلا ودافع عنها. والفلسفة، وضعية كانت أو علمية، هي نوعية فكرية تتخذ من العلم نموذجا لها، أما العلم فهو بالنسبة إلى الوضعيين أساس الفيزياء

الرياضية، وما حذا أحذوها من المعارف البشرية مثل الكيمياء وعلوم الحياة والعلوم الإنسانية (إذا ما قبلنا حشرها في مجال العلمية) (Raquel, C: 1998, p. 12).

فلقد حاول فعلا بعض الفلاسفة تحويل الفلسفة إلى علم، ومن هؤلاء "هيجل" الذي قال: «إن الأمر الذي عقدت عليه العزم هو المشاركة بجهد في أن تقترب الفلسفة من هدفها وتتمكن من طرح الاسم الذي توصف به وهو حب العلم من أجل أن تصبح علما حقيقيا» (هيجل، ف: 1986، 125). ولكن هذا الأمل يبدو مستحيل التحقيق، ولا ينتج من هذه الجهود إلا رأي فلسفي آخر دون أن يكون له أثر يذكر في إحداث تغيير حقيقي قابل للذكر في هيكل وبنیان الفلسفة، ولأن طبيعة الفلسفة أنها تناقش قضايا غير محسومة فكيف يمكن أن تكون علما؟!

إن الفروق والاختلافات الجوهرية بين العلم والفلسفة كثيرة متنوعة حسب كونت وريشيناخ يمكن تلخيصها على النحو التالي:

1. يستهدف العلم وصف الظواهر وكيفية حدوثها، أما الفلسفة فهي تحاول تفسير ما وصل إليه العلم، إذ العلم وصفي والفلسفة تفسيرية.

2. العلم موضوعي وتجريبي والفلسفة ذاتية شخصية أو تأملية ونظرية - مقارنة بالعلم - وهناك مقدار معتبر من الموضوعية في الفلسفة أيضا. ولكن يجب التأكيد على عدم إمكانية تجرد العقل تماما عن الشخص وميوله ونزواته، وخلفيته الثقافية في الفكر الفلسفي، في الوقت الذي بالإمكان إخضاع الأبحاث العلمية لقياسات ثابتة وتجارب معملية يمكن تكرارها للوصول إلى النتيجة نفسها في كل مرة، مما يدل على انفصال معطياتها عن الشخص الذي يقوم بتلك الأبحاث والتجارب، والعلم لا يعتمد مثل الفلسفة على العقل فقط وإنما على التجربة والملاحظة وغير ذلك.

3. العلم إمبريقي، حدوده حدود العالم المحسوس، أما الفلسفة فهي تتجاوز تلك الحدود إلى ما فوقها، وهي التفكير الثاني على حد تعبير بعض الفلاسفة.

4. الأحكام العلمية أحكام تقريرية، بمعنى أنها لا تقرر أكثر مما هو موجود في الواقع الخارجي، أما الأحكام الفلسفية فبعضها معياري، وبعضها فردي لا يعبا بما عليه الواقع، وبما أن العلم يقف في حدود ما هو كائن ولا يتطرق إلى ما ينبغي أن يكون فإنه عاجز عن استخلاص (قيم) من هذا الواقع الذي يقرره

ويدرسه، ولهذا لا يرجى منه أن يعالج موضوع السلوك البشري، والذي هو من أهم موضوعات الفلسفة، لأن الفلسفة تتناول ما وراء الواقع، وما وراء المحسوس والفيزيقي، وتتصدى لقضية الأخلاق والقيم، وتعالج الواقع ليس لتقريره على ما هو عليه، بل لتغييره إلى الشكل الذي ينبغي أن يكون عليه في ضوء قيم الحق والخير والجمال.

5. العلم يبحث عن العلل القريبة المباشرة، والفلسفة تبحث عن العلل البعيدة، التي هي وراء تلك العلل القريبة أو فوقها. وهذه الخاصية نابعة من تجريبية وتقريرية العلم، لأن العلة القريبة هي التي تخضع للاختبار والتجربة، وأما البعيدة فلا ينفع معها ذلك.

6. العلم جزئي والفلسفة كلية، لأن الفلسفة تدرس الوجود من حيث هو وجود كلي عام، ولا تهم بالجزئيات والتفاصيل، أما العلم فله في كل فرع وموضوع تخصص جزئي محدود. وكلما تطورت العلوم كلما تحدد موضوع البحث وسار نحو الجزئية والدقة والانحسار.

7. إن العلم يتبنى في أي مجال مجموعة مسلمات لا جدال فيها، ولكن الفلسفة لا تعترف بالمسلمات إلا إذا ثبتت بالبرهان العقلي، وذلك محدود جداً فيها، والعقل دون الحس هو الأساس في الفلسفة.

8. العلم منفصل عن تاريخه، أو لا يشكل تاريخه جزءاً من حاضره، بخلاف الفلسفة فإنه لا يمكن تجاهل تاريخها، لأن تاريخها جزء منها (Angéle, K: 1982, p. 136).

لكن الرجلين يتفقان على إعطاء معنيين دقيقين للعقل والتجربة في العلم يساعد ضبطهما على توضيح مفهوم العلم عند الوضعيين وبالتالي على بلورة منطوق الوضعيين المتعلق بالمناهج. لذلك يتوجب علينا القيام بهذا الضبط حتى نصل إلى فهم أكبر للموقف الوضعي المشترك.

يبرز كونت الاختلاف بين الفلسفة والعلم على مستوى نوعية النتائج في نصوص كثيرة لعل من أوضحها ما يمكن أن نقرأه في خطاب حول الفكر الوضعي Discours sur l'esprit positif حيث يذكر معاني كلمة "وضعي" (Arousse, P: 1974, p. 58).

تعني لفظة وضعي (Positif) عنده ما هو يقيني مقابل ما هو غير يقيني وغير مثبت. وهكذا، فهي تدل على قدرة الفكر الوضعي على إدخال الانسجام المنطقي عند الفرد والوحدة الروحية في النوع الإنساني. وهذا الاستعداد الكامن في الذهنية الوضعية يتناقض مع تلك الشكوك التي لا حد لها وتلك المناقشات التي لا تنتهي. ومع العلم بأن تلك الشكوك والمجادلات العقيمة أوجدتها، حسب كونت، الفلسفة التقليدية السقراطية، أي الميتافيزيقا.

واضح من هنا، بأن الأمر يتعلق باختلاف الفلسفة الكلاسيكية، أي فلسفة أفلاطون وأرسطو وكانط وغيرهم، والعلم بمعناه الوضعي على مستوى نوعية نتائجهما. وفي هذا الإطار يمكن أن نستنتج أساسا من أن النتائج الفلسفية تختلف عند كونت عن النتائج العلمية. إذ أن الأولى غير يقينية، وهي محل مضاربات عقيمة ومتواصلة، بينما تتسم الثانية بالثبوت واليقين. هذا واليقين يعني فقط هنا ما هو محل إجماع وليس السرمدية والمطلق. فأبوا الوضعية لا يمكن أن يقرّ بوجود نتائج يقينية يقينا مطلقا ونهائيا.

إذن الأمر جلّيّ تماما بالنسبة إلى كونت، فالنتائج العلمية هي نتائج يقينية. بمعنى أنها تفرض الإجماع بين الناس في حين أن هذه النتائج الميتافيزيقية لا تفرض أي إجماع، وهي على عكس ذلك محلّ تناقضات ومضاربات بين الفلاسفة والمفلسفين (Arnaud, P: 1973, p. 111).

ويرر ريشنباخ من ناحيته اختلاف النتائج الفلسفية والنتائج العلمية. ولعل أوضح نصّ له في هذا المجال ما هو موجود في كتابه **نشأة الفلسفة العلمية**، يقول **هانز ريشنباخ**: "إن فيلسوف القرن العشرين ينبغي أن تكون لديه الشجاعة للاعتراف بالحقيقة الواضحة، حقيقة أن الفلسفة كانت عاجزة عن تطوير مذهب مشترك يمكن تعليمه للطلاب ويحوز الرضا العام من جانب كل الذين يقومون بتدريس الفلسفة. ويعرف الذين قاموا منا بتعليم واحد من العلوم ما يعنيه التعليم على أساس مشترك. لقد طوّرت العلوم جسما عاما من المعرفة، يتمتع باعتراف كلّي. وذاك الذي يقوم بتدريس علم ما إنما يفعل ذلك بالشعور الفخور بتعريف تلاميذه على عالم من الحقيقة الثابتة. فلماذا يتعيّن على الفيلسوف أن ينبذ تدريس حقيقة ثابتة؟" (ريشنباخ، هـ: 1979، 172).

وفي هذا الصدد يمكن أن نلاحظ بأن كونت ميز بكل اعتناء بين نوعية الموضوعات الميتافيزيقية ونوعية الموضوعات العلمية، إذ "يدل لفظ وضعي (positif) أولاً، حسب معناه القديم والشائع، على ما هو واقعي مقابل ما هو خيالي... وهو يعني ثانياً، بمعنى قريب من الأول، التناقض القائم بين ما هو مفيد وما هو عديم الفائدة... وفي هذه الحالة فهو يتضمن تذكيراً للفيلسوف بأن مصير كل تأملاتنا يجب أن يكون في اتجاه التحسن المستمر لوضعنا الحقيقي، الفردي منه والجماعي، عوضاً عن إرضاء لا طائل منه لفضول عقيم". ويستطرد كونت مفرقا بين الفكر الوضعي والميتافيزيقا (أي بين الفلسفة والعلم)، فهو يميز فيما ذكر بين الموضوعات الفلسفية والموضوعات العلمية. فالأولى خيالية وغير مفيدة، بينما يتسم النوع الثاني بالواقعية والنفعية، إذ أن لفظ وضعي (positif) يرادف عند الكاتب ما هو واقعي (Réel) وما هو مفيد (Utile). والواقع الحسي هو المقصود عند كونت لا الواقع الفكري الذي قال به أفلاطون. (Comte, A: 1974, p. 95).

لا يعتني الفكر العلمي الوضعي بأصل الكون ومآله، ولا بعلم الأشياء، بل يهتم بالظواهر الداخلية بربطها مع أحداث عامة، أي بسن قوانين تكون حالات خاصة فيها. وفي الحقيقة، إن هذا النص مكمل للأول. فالعلم يستمد واقعية موضوعاته ونفعيتها من كونه يبحث في الظواهر والوقائع الحسية. أما الفلسفة فموضوعاتها متعالية وميتافيزيقية، تهتم بالمنطق وبعلم الأشياء ونهايتها. ويعتبر رايشنباخ أن الفلسفة باختصار تفسر مثل العلم، لكن التفسير الفلسفي يخص أسئلة لا علاقة لها بالجمال الحسي (ولا يمكن لرايشنباخ أن يقبل الواقع العقلي بالمعنى الأفلاطوني) إن التفسير العلمي هو أسير الواقع وسجين الحس... والفلسفة، تأملية تجريبية، تبحث بنظره في أسس الأشياء (أي بلغة كونت: في الماهيات والعلل وتمثل بنظره مادة تفسيرها وتعميمها). ورايشنباخ ينقد بشدة في هذا الصدد الأنطولوجيا كونها تعتني بالأسس. (Kolakowski, L: 1976, p. 92).

وتبحث الفلسفة عند رايشنباخ بمختلف أنواعها في المطلق (الذي هو عين العقل والتأسيس)، في حين أن العلم المعاصر (لرايشنباخ طبعاً) قد طلق المطلق ثلاثاً. والفلسفة المتجهة نحو المطلق بكل قواها أمودجا لها لأنها تربط المطلق بالفكر

الرياضي، أما العلم الملتصق بواقع الرياضيات وبتطورها فلا يمكن أن يجعل من الرياضيات مصدرا وينبوعا للمطلق (laugier, S: 1974, p. 95).

وفيما يخص بحثنا، يجوز القول إن الفارق الحقيقي بين البحث الفلسفي والبحث العلمي هو فارق منهجي بالتأكيد. فمصدر عقلانية الموضوعات الفلسفية هو عقلانية المناهج الفلسفية، وواقعية الموضوعات العلمية متأتية من واقعية المناهج العلمية. وفعلا فقد أكد الوضعيون على وجود فروق منهجية بين العلم على المستوى المنهجي.

يعرض كونت في هذا قانون الوضعية للمراحل الثلاثة وهي: اللاهوتية، الميتافيزيقا أو الفلسفة التقليدية والفكر الوضعي أو العلم. وبخصوص الفلسفة يقول كونت أنها تختص بالتجريد (abstraction) ويتصور الأشياء (conception) وهذا يعني، إن أردنا ترجمة وظيفة ميتافيزيقا المنهج بلغة لا يرفضها كونت أن هذا النمط المعرفي يتسم بالعقلانية كوسيلة عمل وبحث أما المعلم الوضعي الذي تمكن من التخلص مما يكبل الفكر الفلسفي والبحث في المطلق في طبيعة الأشياء، فهو يركب خلال تحركه المنهجي بين العقل والتجربة. إذ يقول كونت في هذا الصدد: "الارتباط فقط بالكشف عن القوانين الحقيقية للظواهر يعني علاقات التلاحق والتشابه الثابتة المميزة لها وذلك عن طريق استعمال الاستدلال في علاقته بالملاحظة" (Frick, J-p: 1990, p. 114).

إن الفكر العلمي الوضعي المتمثل في الفلسفة الوضعية يركب بين العقل والتجربة الحسية، وأن هذا التركيب هو دحض (Refutatif) واسترجاعي (Recuperative) في ذات الوقت، أي أن كونت لم يجمع بين عناصر مختلفة بصفة آلية بل بصفة واعية، آخذا من كل طرف ما يهم نسقه. وطبعا تبقى الفلسفة التقليدية (الميتافيزيقا) غارقة إلى العنق في العقلانية. لكن ما هي أسباب هذا الاختلاف المنهجي حسب كونت؟

تختلف إذن الفلسفة عن العلم منهجيا حسب أبي الوضعية. فالفلسفة (الميتافيزيقا) تقف في نظره عند استخدام العقل، أما العلم (الفيزياء طبعا) فهو يركب بين العقلانية والتجريبية الحسية. ويمكن تبرير الاختلاف المنهجي بين الفلسفة والعلم تاريخيا إذ إن الفكر الإنساني عموما والفكر الإنساني الفردي يمران

حتمًا، حسب كونت، بالعقلانية الميتافيزيقية قبل الوصول إلى النضج والكمال المميزين للفكر العلمي الوضعي. هذا والملاحظة في هذا الصدد أن مؤسس الاتجاه الوضعي يعتبر أن الميتافيزيقية مرحلة وسطى ضرورية للربط بين اللاهوت والعلم. ومن الناحية النظرية يقول كونت إن الفكرة العامة في حاجة مبدئيًا إلى ربط النظر بالوقائع الحسية أو العقل بمجال الحس أو كما يقول في خطاب حول الوضعية الاستنباط العقلي بالاستقرار الحسي. بيد أن الفكر الـ "ما قبل وضعي" غير قادرا فعلا على أخذ الواقع الحسي في الاعتبار، وبالتالي على الربط بينه وبين العقل، فبقية الميتافيزيقا سحينة العقلانية وحدها. وبعبارة أخرى، إن طبيعة الفكر تؤهله مبدئيًا وبالقوة بالربط بين العقل والحس. لكن مسألة الفعل والإنجاز تبقى رهينة نضجه وكماله. والميتافيزيقا لم تصل حسب كونت إلى هذه المرحلة التي يمثلها الفكر الوضعي (Gouhier, H: 1933, p. 116).

ويميز رايشنباخ من ناحيته أخرى بين المناهج الميتافيزيقية (الفلسفية) والمناهج العلمية. ويعتبر أن أتمودج المعرفة عند (أفلاطون وديكارت وما عند هيجل) هو الرياضيات. فهو يقول في هذا الصدد ما يلي: "ويطلق على نوع الفلسفة التي تعد العقل مصدرا لمعرفة العالم الفيزيائي اسم المذهب العقلي (Rationalism). وينبغي أن نميز بدقة بين هذا اللفظ، وكذلك الصفة المشتقة منه، وهي عقلاني، وبين لفظ معقول، فالمعرفة العلمية يتم التوصل إليها باستخدام مناهج معقولة لأنمت تقتضي استخدام العقل مطبقا على المادة الملاحظة، غير أنها ليست عقلانية إذ أن هذه الصفة لا تنطبق على المنهج العلمي، وإنما على المنهج الفلسفي الذي يتخذ من العقل مصدرا للمعرفة التركيبية المتعلقة بالعلم، ولا يشترط الملاحظة لتحقيق هذه المعرفة" فالفلسفة العقلانية ليست إذا علما، وهي تختلف عن العلم لأنها تستعمل في بحثها عن اليقين العقل وحده، بينما يربط العلم بين مجال الملاحظة الحسية وميدان العقل". وريشنباخ يذهب إلى حد نقد الاستعمال الفلسفي للعقل. فالفلسفة تسقط في نظره في لغة مجازية غير دقيقة، لكن ماذا عن الفلسفة "التجريبية"؟

يعتني ريشنباخ بـ "الفلسفة التجريبية" وبالفروق المنهجية القائمة بينها وبين العلم. ويعتبر رايشنباخ أن أتمودج المعرفة عند التجريبيين هو الفيزياء. وهو يحدد على النحو التالي الاتجاه التجريبي العام: "وهكذا فإن المنهج التجريبي، على

خلاف المذهب العقلي، يجعل للذهن دوراً ثانوياً هو إقرار النظام بين الانطباعات والأفكار، والنسق المنظم هو ما نسميه بالمعرفة" وهكذا فالفلسفة التجريبية لا تلغي دور العقل (أو الذهن)، بل يصبح هذا الدور ثانوياً ويتمثل في تنظيم المادة التجريبية (ريشنباخ، هـ: 1976، ص 172).

يبدو أن هذا الضرب من التفلسف لا يرضي تماماً ريشنباخ المدافع عن العلمية. فهو فعلاً يثني على الاتجاه التجريبي في الفلسفة، لكنه يعتقد جازماً بأن الفلسفة التجريبية وقعت هي الأخرى في خطأ: "وهكذا يتحتم علينا الاعتراف بضرورة وجود خطأ أساسي في المذهب التجريبي. فقد سبق أن ارتكب صاحب المذهب العقلي خطأ النظر إلى المعرفة الرياضية على أنها نموذج كل معرفة، وبذلك أراد أن يجعل من العقل مصدراً لمعرفة العالم، في أساسياتها على الأقل. أما (المذهب) التجريبي فقد صحح هذا الخطأ بأن أكد على أن المعرفة التجريبية مستمدة من الإدراك الحسي... ومع ذلك فالمعرفة المستمدة من الملاحظة تقتصر على الماضي والحاضر. أما معرفة المستقبل فليست من النوع المستمد من الملاحظة" فعيب الفلسفة التجريبية التي هي أفضل، حسب ريشنباخ، من الاتجاه العقلاني، يتمثل في كونها غير قادرة على التنبؤ في المستقبل وعلى معرفته إذ هي تقتصر على الماضي والحاضر فقط. لكن كيف نصحح هذا العيب. إن الإجابة تكون عنده في إطار نظرية في الاحتمالات وفي التخلي عن فكرة اليقين المطلق الكامنة وراء الفلسفة التجريبية. إن عيب هذه الأخيرة هو إيمانها بإمكانية الوصول إلى المطلق، وبالتالي فالعقلانية كامنة فيها وإن هي أرادت الخروج من هذا المأزق يتوجب عليها الابتعاد عن هذه العقلانية الخفية (ريشنباخ، هـ: 1976، ص 173).

من هنا، فالفلسفة بنوعها عقلانية باعتبارها تنزع نحو المطلق. بيد أن العقلانية التجريبية أسلم وأصح. ومن ناحية أخرى، فالربط العلمي بين الحس والعقل يمر حتماً، في نظر ريشنباخ، بالتخلي عن فكرة المطلق واستبدالها بفكرة الاحتمال.

إن مآل الفيزياء الكلاسيكية حسب ريشنباخ، هو الإخفاق والفشل. والسبب عنده هو تشبثها الخفي باليقين المطلق رغم ربطها بين مجال العقل وميدان الحس. ويبرز ريشنباخ أنه في النهاية سيتغير صلب العلوم المعاصرة، حيث سيكون

الاحتمال سيد الموقف. ويبدأ المنحى الاحتمالي في نظره انطلاقاً من القرن التاسع عشر الذي شهد زعزعة الهندسة الإقليدية ومعها فكرة اليقين الرياضي المطلق. والاختصار، يمكن تلخيص موقف ريشنباخ على النحو التالي:

تتميز الفلسفة، تأملية كانت أو تجريبية، بنزعتها العقلانية. بيد أن عقلانية الاتجاه التجريبي خفية وهي واضحة وصریحة داخل الشق التأملي. وعقلانية الفلسفة مرتبطة في كلتا الحالتين بالتشبيث بالمطلق.

أما العلم فهو يربط بين الحس والعقل الاحتمالي. وواضح أن نموذج العلم عند ريشنباخ هو العلم المعاصر الذي استبدل اليقين المطلق بالاحتمال (Kremer, M: 1970, p. 113).

كما يعتقد كونت وريشنباخ أن العلم يربط، خلافاً للفلسفة التي هي في كل الأحوال عقلية، بين مجالي العقل والحس. بيد أن وظيفة العقل ليست هي نفسها تماماً في كلتا الحالتين. فالعقل مصدر لليقين المطلق عند كونت بينما هو احتمالي ترجيحي لدى ريشنباخ (ريشنباخ، هـ: 1976، ص 171).

بعد ذلك يؤكد ريشنباخ أن الفلاسفة، وخلافاً لأهل العلم، يذكرون آرائهم الشخصية أو آراء الناس الآخرين فحسب ويضيف: "فلنتخيل عالماً عليه أن يقوم بتدريس الإلكترونيات على شكل تقرير عن وجهات نظر علماء الطبيعة المختلفة، من دون أن يذكر لتلاميذه أبداً ما هي القوانين التي تحكم الإلكترونيات. إن الفكرة تبدو مثيرة للسخرية" (ريشنباخ، هـ: 1976، ص 190).

وعليه حسب ريشنباخ يمكن أن نستنتج الأفكار الأساسية التالية:

1. لا يمكن تدريس نتائج فلسفية ثابتة، والعكس يحصل عندما يتعلق الأمر بالنتائج العلمية، فباستطاعة أستاذ العلوم أن يدرس حقائق علمية يقينية، بينما يستحيل على أستاذ الفلسفة أن يقدم إلى طلبته معلومات فلسفية ثابتة.
2. لا يذكر الفلاسفة في نهاية الأمر إلا أفكارهم الشخصية أو يرددون أفكار غيرهم. وريشنباخ يؤكد على الطابع الذاتي للنتائج الفلسفية وعلى البعد الموضوعي للنتائج العلمية.

3. وهذه الذاتية تؤدي إلى عدم الإجماع وإلى التناقض، بينما ينجم عن الموضوعية النتائج العلمية.

وهكذا لم يحد ريشنباخ، على هذا المستوى بالذات، عن سلفه الفرنسي أوجست كونت إذ نراه يحدّد في هذا النصّ ذي البعد التربوي الفارق بين نوعية النتائج العلمية ونوعية النتائج الفلسفية بنفس الطريقة، ويرى كما فعل أبو الوضعية أن الأولى محلّ إجماع أمّا الثانية فلا. والملاحظ هنا أن الاختلاف الأساسي بين الرجلين والمتعلّق بالمرجعية العلمية يبقى قائماً.

يستفق ريشنباخ إذن مع كونت على أن النتائج العلمية يقينية، بمعنى أنها محلّ إجماع، وعلى أن النتائج الفلسفية (المتافيزيقية) لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تحظى بنفس الصفة إذ هي في حالة تناقض مستمر لا طائل تحته. بيد أن الإجماع العلمي يتصل عند كونت بحقائق مضبوطة ومحددة بينما يتعلق الأمر لدى ريشنباخ بالاحتمال، والسبب هو اختلاف في النموذج العلمي الذي يتراوح بين العلم الحديث والعلم المعاصر (Bernard, E: 2002, p. 95).

والفلسفة العلمية ذاتها، الحريصة على تقليد العلوم وعلى الابتعاد عن الفلسفة التقليدية، لم تبحث في الواقع الحسّي مباشرة بل في معاني النصوص العلمية. وهي لعمري طريقة غير صريحة للبقاء في ميدان العقل والتأسيس والتفلسف، لأن البحث عن المعاني تأسيس، وهو عين العقل.

وخلاصة القول، لا بد فعلاً من الإقرار بواقعية العلوم كما فهمناه ويقينية نتائج هذه العلوم بالمعنى الذي ضبطناه والذي أكد عليه كل من كونت وريشنباخ. والأكيد أن الصفة الأولى تؤدي إلى الصفة الثانية التي تصبه بهذا الشكل نتيجة لها.

وعموماً يمكن تلخيص الموقف الوضعي الرسمي ممثلاً بـ كونت وريشنباخ وبمتهى الإيجاز على النحو التالي: تتميز الفلسفة السقراطية مهما كان لوها بالعقلانية في الموضوعات والمناهج، وبالتناقض وعدم الإجماع من ناحية نوعية النتائج. أما العلم ونموذجه الفيزياء الرياضية عند الوضعيين فهو يختص بالواقعية من زاوية نوعية الموضوعات والمناهج، وباليقين في النتائج. إن هذه الواقعية العلمية، كما لمسنا، مرتبطة بالتحليل الرياضي، وإن هذا الأمر يهم العلم الحديث الذي يفكر فيه كونت والعلم المعاصر الذي يتخذه ريشنباخ أنموذجاً لفكرة الإبستمولوجي. وهذه الفكرة صحيحة ويررها تاريخ الفيزياء الذي يبرز أن الحقيقة العلمية تنتج عن اقتران التجربة والرياضيات.

المراجع:

- عبد القادر بشتة: الفلسفة والعلم، دار الطليعة، بيروت ط1، 2002.
- جورج ويلهلم فريدريش هيجل: محاضرات في تاريخ فلسفة، ترجمة خليل أحمد خليل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، 1986.
- هانز ريشنباخ: نشأة الفلسفة العلمية، ترجمة: فؤاد زكريا، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1979.
- 1998: Le positivisme est un culte des morts, Raquel Capurro
- , Angèle Kremer-Marietti: Le positivisme, Angèle Kremer-Marietti
- P. U. F. , 1982, 1993. Réédition: Le positivisme d'Auguste Comte, L'Harmattan, 2006.
- P. Arbousse-Bastide: Matérialisme et positivisme, Paris, 1974.
- P. Arnaud, Le «Nouveau Dieu», préliminaires à la politique positive, Paris, 1973.
- «Auguste Comte»: n. spéc. 3 des Études philosophiques, consacré au cent cinquantième de l'Opuscule fondamental ou Plan des travaux scientifiques nécessaires pour réorganiser la société, juill. - sept, 1974.
- J. -P. Frick: Auguste Comte, ou la République positive, Nancy, 1990.
- H. Gouhier: La Jeunesse d'Auguste Comte et la formation du positivisme, 3 vol. , Vrin, Paris, 1933-1941: I. Sous le signe de la vérité, 1933.
- L. Kolakowski: La Philosophie positiviste, Paris, 1976.
- A. Kremer-Marietti: Auguste Comte et la théorie sociale du positivisme, Paris, Gonthier, 1970.
- : Les implications *philosophiques* P. U. F, 2002. Bernard d'Espagnat
- Sandra Laugier: Philosophie des sciences - Tome 1: Expériences, 2008. Vrin théories et méthodes. Editeur